كل احد

لماذا أصبح الارهاب خبز العرب؟!

شاكر النابلسي

-١-

العرب من أكثر شعوب الأرض حباً وأكلاً وتقديساً وتبجيلاً للرغيف. فلا تخلو مائدة عربية فقيرة أو غنية منه. والعرب يُقسمون بالرغيف، ويقولون عن العمل وطلب الرزق (أكل العيش)، والعيش هو الخبز، والعيش من الحياة والاعاشة.. الخ. والعربي عندما يجد قطعه خبز في الشارع أو في الطريق يلتقطها ويبوسها ويضعها على جبينه تقديساً واجلالاً، ثم يضعها في شق جدار أو على حافة نافذة ليأتي الطير ويلتقطها.

فهل أصبح الارهاب في الثلث الأخير من القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين هو خبز العرب على كل مائدة عربية قومية كانت أم دينية؟!

-٢-

لو كان لدى العرب مرآة مجلوّة ليروا فيها صورتهم اليوم، وامتلكوا الشجاعة الكافية للنظر في هذه المرآة لأصابهم الفزع والفجيعة، وانتابهم الهول لصورة وجههم في هذه المرآة.

انها صورة أننا أصبحنا اكثر أمم الأرض ارهاباً وسفكاً للدماء في العالم في هذا الزمان من التاريخ الذي توصلت فيه الأمم إلى حلّ مشاكلها المختلفة بالحوار وباللجوء إلى الديبلوماسية، وعقد الندوات ومخاطبة عقل العالم ورأيه العام ومثقفيه وفكره بدلاً من تهديده بسفك دمه إذ لم يستجب لهذا الطلب أو ذاك، آخذين بالاعتبار أن كافة مطالب الارهابيين سواء الذين يرهبون العرب والمسلمين أو الذين يرهبون الغرب هي مطالب طفولية سخيفة، لا تمت إلى ارض الواقع بصلة، ولا يستطيع عاقل واحد في الشرق أو في الغرب أن يأخذ بها أو يقيم لها أي اعتبار.

انها صورة أننا أصبحنا أمة بلا عقل!

-٣-

ما الذي حصل للعرب في مصر والجزائر والسعودية والعراق وفلسطين والمغرب واليمن وغيرها؟

ما الذي أفقد العرب عقلهم الذي قادوا به العالم في القرن العاشر الميلادي؟

لماذ جنّ جنون العرب على هذا النحو؟

أهو انقطاع الأمل من الاصلاح العام؟

أهو فقدان الأمل في فلاح العالم العربي؟

أهو نتيجة للفواراق الطبقية الهائلة بين من يملكون ومن لا يملكون؟

أهو نتيجة للفقر المدقع الذي يدفع كثير من العرب إلى التقاط طعامهم من براميل الزبالة؟

أهو نتيجة للفساد العام الذي يعمّ أنظمة الحكم، والتي لا تستجيب لأي اصلاح ولا تريد أي اصلاح يسبب سحب خيط واحد من السجادة الفاخرة التي ترقد عليها، لأنها مدعومة بأجهزة بوليسية قادرة على احباط كل مطالبة بالاصلاح الذي يعني حتماً نهاية بعض الأنظمة القائمة؟

أهو سيطرة التعليم الديني الظلامي الذي يحرض على محاربة الحداثة والديمقراطية والليبرالية الجديدة، ويهدر دماء دعاتها وروادها ومريديها؟

أهو تخلي النخب المثقفة عن دورها السياسي مما أفسح المجال أمام رجال الدين من أصحاب العمائم البيضاء والخضراء والسوداء لقيادة العمل السياسي في العالم العربي، بحيث أصبحنا لا نفرّق بين ما هو سياسي وما هو ديني، واختلط المدنّس بالمقدّس، وأصبحت المساجد ساحات لمعارك سياسية مسلحة، وشاعت الفوضى، وأصبح في العالم العربي ألف دين وديـن كلهـا ينتمي إلى الإسلام المسروق، والمغتصب، والمستعمَل، والمستغَل، والمشترى، والمباع، والمزوّر، والمأوّل، والمقوّل؟

أهو نتيجة لاحباط كبير ومخيف اصيبت به فئات كبيرة من الشعب العربي، ولم تجد خلاصها وذاتها وتحقيق وجودها إلا باشهار السلاح في جميع الوجوه الغربية والعربية والأسيوية والافريقية والبوذية؟

أهو نتيجة لتزوير المثقفين للحقيقة، وعدم امتلاكهم الشجاعة لقولها وابلاغها لطلابها؟

أهو نتيجة لانتشار الأمية الابجدية والثقافية المخيف في العالم العربي، والتي تجعل السواد الأعظم لا يقرأ، ولا يعلم، ولا يفكر؟

أهو نتيجة لتراكمات الظلم السياسي والاجتماعي الذي عانى منه الشعب العربي طيلة خمسة عشر قرناً ماضية؟

أهو نتيجة لكثرة المقدسات والطواطم في الحياة العربية، بحيث افقدت الأكثرية الايمان بجداواها، فاخترعت هذه الأكثرية طوطمها ومعبودها الخاص الذي تمثل في الطوطم القومي كعبد الناصر وصدام حسين، وفي الطوطم الديني المزيف كابن لادن، والزرقاوي، والحوثي وغيرهم كثير؟

أهو نتيجة لتوفر دخل هائل للجماعات الارهابية من الزكوات والصدقات التي تتدفق كل يوم من المحسنين المسلمين من كافة أنحاء العالم. ففي تقرير صدر منذ مدة يقول أن ثروة الشيخ القرضاوي أحد دعاة الارهاب في العالم العربي تقدر بعشرات الملايين من الدولارات. وأنه خسر في (بنك التقوى) وحده مبلغ ثلاثة ملايين دولار نتيجة لاغلاقه بمساع امريكية، وهذا هو سرّ حملة القرضاوي الضارية على امريكا؟

أهو نتيجة للأموال الطائلة التي يحصل عليها الارهابيون نتيجة لزراعة الحشيش والأفيون على الحدود الافغانية- الباكستانية. ففي تقرير للبنك الدولي إن أكثر من نصف اقتصاد افغانستان مرتبط بالمخدرات، وأن الدخل الإجمالي للفلاحين والمهربين داخل البلاد وصل إلى ٢,٢٣ مليار دولار في العام الماضي بينما كان الدخل ١,٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٢. وتشير التوقعات التي نشرها مؤخراً تيم ماكفريك (كيف تستفيد (القاعدة) من تجارة الإفيون، مجلة تايم، ٣٠/ ٧/٢٠٠٤) هذا العام إلى أن حصاد الأفيون في أفغانستان وصل إلى ٣٦٠٠ طن ويعد الإنتاج الأكبر منذ عام ١٩٩٩ ويكفي لإنتاج هيروين تقدر قيمته التسويقية بـ٣٦ مليار دولار.

-٤-

لقد امّحت من ذاكرة العرب كل آية، وكل حديث نبوي، وكل قول حكيم، وكل قول شاعر، وكل قول مثقف يحضُّ على التفكير وإعمال العقل.

استسلم العرب للثقافة الدينية المزوّرة، وأصبحت خطب الجمعة الهائجة والبرامج الدينية والكتب الدينية والعمائم الدينية هي القول الفصل في العسل والبصل، وفي الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والتربية والثقافة.

استسلم العرب للإعلام الغوغائي المتشنج والمثير، وطفقوا يبحثون في نشرات الاخبار عن دماء تهدر، ورؤوس تقطع، وجثث تسحل، وجلود تسلخ، وبيوت تهدم. وكانت أجمل المناظر الخلابة في عيون العرب هذا العام المقابر الجماعية العراقية.

كل من يفكر في العالم العربي ويستعمل عقله، منبوذ، ومسبوب، وملعون، ومن أولاد الأفاعي والعلقمي، ومن عملاء الاستعمار الأمريكي الجديد، ومن كُتاب المارينز، ومن جواسيس المخابرات الأجنبية.

الإسلامويون الذين خطفوا الاسلام وسرقوه وزوّروه وأسقطوا آياته التي جاءت تنبيء بما حدث قبل خمسة عشر قرناً ويزيد على أحداث الوقت الحاضر، هم الذين يقودون الآن قطعان العرب إلى محرقة التاريخ الانساني والى لعنة هذا التاريخ، لا بالعقل، ولكن بالعواطف المتشنجة وبالوعود الغيبية، وبقلة الايمان النقي البسيط بالله.

نعم، لقد فقد العرب ايمانهم النقي بالله، وأصبحوا عبيد الطواطم الدينية الدموية وليسوا عبيد الله. وعندما كانوا عبيد الله كانوا يُحكّمون بالعقل ويحكُمون، ويحتكِمون اليه. واغتالوا العقل عندما أصبحوا عبيد الطواطم الدينية الدموية، فسهُل على الطواطم الدينية سوقهم سوق الشياه إلى مذبحة الارهاب، وبصكوك غيبية أشبه بصكوك غفران الكنيسة في القرون الوسطى.

ألم نقل لكم في مقال سابق (هل يعيش العرب الآن في ظلام القرون الوسطى؟ ٧/٧ /٢٠٠٤) بأن حال العرب الآن تنبيء بأنهم يعيشون في القرون الوسطى ولكن بطريقة اليكترونية!

أي أنهم يفكرون تفكير القرون الوسطى في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم، ولكن بأساليب اليكترونية حديثة، مُستعملين في مأكلهم ومشربهم وتنقلهم أحدث ما توصل اليه العلم الغربي والتكنولوجيا الحديثة في شتى المجالات، ولكنهم في الوقت ذاته يفكرون تفكير القرون الوسطى، ويتصرفون في حياتهم وكأنهم ما زالوا يعيشون في القرون الوسطى. وهم كذلك ما زالوا عبيداً لفكر ومفكري القرون الوسطى.

-٥-

ما هو الحل؟

هل يحتاج العالم العربي إلى ضربه ضرباً موجعاً بقنبلة نووية تفني مليوناً أو بعض مليون كما حصل لليابان في العام ١٩٤٥، لكي يفيق من غفوته واستهباله وتماديه بحق الإنسانية والبشرية عموماً، ويعود إلى عقله، كما عاد اليابانيون إلى عقلهم بعد أن تم ضربهم تلك الضربة العنيفة المُهلكة؟

لقد كانت هذه الفكرة واردة بعد الحادي عشر من سبتمبر. فلقد تم ضرب اليابان بقنبلة نووية مقابل ٢٦٠٠ جندي قتلوا في بيرل هاربر في ١٩٤١، بينما فقدت أمريكا في ١١/٩ /٢٠٠١ ثلاثة آلاف عقل اقتصادي هم جزء كبير ومهم من الماكينة الاقتصادية الأمريكية والعالمية، ومن العقل الاقتصادي الأمريكي والعالمي، وهي خسارة أفدح بكثير من خسارة بيرل هاربر.

إن الذي جعل هذه الفكرة مستهجنة وغير قابلة للتنفيذ أن القيم السياسية الإنسانية قد اختلفت وارتقت الآن، وهي تحول دون تكرار ما فعله الرئيس هاري ترومان في اليابان، رغم أن اليابان قد ضُربت وكانت هناك قوة عظمى أخرى في العالم. أما الآن فلا قوة عظمى في العالم غير واحدة.

ولكن هل تغير العرب، وهل تغيرت قيمهم السياسية الإنسانية تبعاً لذلك، عما كانت عليه في النصف الأول من القرن العشرين؟

للأسف، فلقد ازداد العرب حمقاً ودموية وابتعاداً عن العقل، وانحطت قيمهم السياسية الإنسانية، وأصبحوا يخاطبون العالم بالسيف والبلطة وبجيوش من الملثمين من قطاع الطريق واللصوص والقتلة.

فهل ينسى الغرب قيمه السياسية الإنسانية، ويواجه العرب بالسلاح نفسه الذي استعمله في ١٩٤٥، وبالأسلوب نفسه، حماية للانسان ومستقبله على هذه الأرض؟!

من العقلنة إلى الشرعنة

محمد حسين الأعرجي

ليس هنالك أُمّةٌ يمكن أن تكون لها مقوِّماتُ أمّة دون أن تُحسنَ الأداء بلغتها، ودون أن تضبط هذا الأداء.هذه بديهية تبلغ من بداهتها أن حدّثني - ذات يوم - المرحوم الأستاذ مولود قاسم نايت، ومولود لمن لا يعرفه من مناضلي جبهة التحرير الوطني الجزائرية أثناء الثورة، وصار وزيراً بارزاً من وزرائها بعد استقلال الجزائر.

أقول حدّثني؛ أنّ الألمان لا يجيزون لطالب الدكتوراه في الرياضيات - مثلاً - أن يُمنح شهادتها إذا ارتكب أخطاء فادحة لغوية في كتابة نظريته.

ولقد كنتُ يوم حدثني مع صديقي المرحوم الدكتور أبي العيد دودو - والرجلان أعني: نايت، ودودو - ممّن يحسنون الألمانية كأهلها فأمّن دودو على ما قال.

هذا هو حالُ أمة متحضّرة كالأمّة الألمانية.

وحالٌ أخرى حدّثني بها أصدقائي العرب المقيمون في بولندة أنه كان من أسباب إخفاق الرئيس البولندي السابق لخ فاونسا في الفوز برئاسة ثانية أنه كان يرتكب أخطاء نحوية في استعمالها حين يخطب.

هاتان حالتان عرفتهما سماعاً، وهنالك حالات يعرفها القارىء الكريم.

فإذا كان ممّن قرأ تاريخ العرب، وأدبهم عرف أن لماذا ميّز العراقيون والياً ظالماً قاتلاً للنفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، اسمه زياد بن أبيه؟ فقد ميّزوه من سواه لا لشيء إلاّ لأنه قال خطبته البتراء.

وأقرّوا لوغد جلاّد بالولاية بلغ من الجريمة أنه كان (إذا قتل نفساً يُمني) اسمه الحجّاج بن يوسف الثقفي، لأنه رأى رؤوساً (قد اينعت وحان قطافها)، إعجاباً بفصاحة الأداء وبلاغته، لا لأنه توعّدهم بقطف رؤوسهم، ومن ذا الذي يفرح بقطع رأسه؟!!!

ودرّجنا الزمنُ في معاملاته، وفي تصاريفه بحيث صرنا لا نفهم ما يخاطبنا به سياسيّونا، فنحن معهم كما قال شاعرٌ لبنانيٌّ ساخر:

يكلمُني فلم أفهمْ عليه
كأنّ كلامه الشعرُ الحديثُ

ولقد طلب مني من خلال موقع عراقيّ يوم الأول من أمس أن أوقّع على بيان يخصّ المحنة العراقية فاعتذرت عن التوقيع وكتبتُ إلى الذين أرسلوا إليّ ما نصّه: (كان يسرني أن أوقع على البيان، ولكنّني لم أفهمه، لأنّه إنشاء حديث، وما هكذا تصاغ البيانات السياسية التي يوقّع عليها الناس).

نعم درّجنا الزمنُ فجاءنا رجال دين مزعومون يقال: إنّهم من زعمائنا بنحو جديد يكون فيه المجرور مرفوعاً، والمفعول مجروراً، وتكون فيه أدوات الشرط ممّا ينوب عنها أداة الامتناع كأن يقال: (أنا لو صحّ التعبير رجلٌ)، وينسون استشهاد النحويّين بقول الشاعر العربي القديم في قوله:

فلو جنّ إنسانٌ من الحُسن جُنّتِ
ثمّ تعقيبهم أنّ (لو: أداةُ امتناع لامتناع).

ومن هذه القاعدة أن كان من أمثالهم قول الشاعر: (إنّ ليتاً وإنّ لوّاً عناء)، وإذاً لا (ليت) ولا (لو) ممكنتا التحقيق، فلماذا إذاً (لو صحّ ...)؟!

ومع هذا تسمع آناء الليل وأطراف النهار (لو صحّ...).

وأريد أن أسأل سؤالاً ساذجاً هو: أترى أنّ من لا يعرف قواعد لغة العرب يستطيع أن يستنبط من لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف حُكماً شرعياً؟ وأن يكون زعيماً دينياً يُركن إليه في أحكامه؟!!!

فإذا كان الجواب بالإيجاب فلماذا يُدوّخ فقهاؤنا الأعلام تلاميذهم بمرحلة السطوح التي تقتضيهم أن يحذقوا النحو والبلاغة وما إليهما؟!

وإليك الآن نموذج من معرفة حجّاجي العصر وزياديه من سياسيّين وطبّالين فأقول:

لم تشهد الأمة العربية من محيطها إلى خليجها من الحاكمين العرب - في القرن الفائت - الذين يعرفون لغة أمّتهم في عصرنا إلاّ ثلاثة هم الراحلون: الزعيم عبد الكريم قاسم، والملك حسين، والرئيس حافظ الأسد.

فأمّا الآخرون فهم عرب لا يُبينون، وحسبك من ذلك أن كان أحدُ الرؤساء في شمال أفريقية يجمع اسم الموصول الذي هو: (التي) على (اللتين) قياساً على جمع (الذي) على (الذين)، ويسحق بنعله قواعد الصرف فيجمع لفظة (لغة) على: (لوغات) ويستخرج من جذر (ورد) الذي منه: (استورد) مادة عجيبة هي: (استيْوراد).

وبلغ إتقان العربية برئيس آخر أن ختم بيانه الانقلابيّ بقوله تعالى، وسأسوقه كما قرأه: (وقلّ أعْملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسوله).

وجدت لنا أيّامٌ أخرى فصرنا نسمع فيها من الحاكمين - بمن فيهم العراقيون - شيئاً يسمونه: (قواعد اللعبة الديموقراطية)، ويحتكمون إليه فيقولون عن هذا التصرف السياسيّ أو ذاك: (إنّه مُنافٍ لقواعد اللعبة الديموقراطية)، ومجافٍ لقواعد (اللعبة السياسية).

وأقول: إذا كانت الديموقراطية لعبة، وكان التداول السلمي على السلطة لعبةً أيضاً فلماذا نلعب بهما؟

من لعب الأطفال أنهم يلعبون بالكرة - على سبيل المثال - أو بطائرة من ورق، ومن لعب الكبار أنهم يلعبون بالورق، وبالشطرنج، والنرد، والدومينو فيخسر هذا ويربح ذاك، فهل يريد زعماؤنا في لا وعيهم أن نلعب مثل هذا اللعب وتكون النتيجة محسومةً ديموقراطياً؟!

أظنّ أن هذا عيب، وصفاء النيّات في التداول السلميّ يقتضينا أن نقول: (قواعد الممارسة الديموقرطية).

وسمعت يوم: ٩/٨ على إحدى القنوات الفضائية رجلاً يحمل شهادة الدكتوراه من باريس، ورّعم له بأنه محلّل سياسيّ - وما أكثر المحلّلين هذه الأيام!!! - سمعته يقول في تحليل الوضع الفلسطيني: إنّ شارون يريد (يَهوَدة الضفة الغربية).

وأقول: لماذا (اليَهودة) لا (التهويد)؟ ألم تسمع يادكتورنا العزيز بحديث رسولنا الأعظم (ص): (يولد المرء على الفطرة، وإنّما يُهوّدانه، ويُمجّسانه أبواه).

ألا إن من آفات العربية التفاصح.

ويقول لك السياسيون وطبّالوهم (وقد دان الوزيرُ اقتحام الحرم القدسيّ).

والصواب: (أدان)، لأنّ قولك (دان الوزير بكذا) معناه أنّه اعتقد به، واتخذه ديناً، ومنه جاء يوم (الدينونة) و(أدان) تعني: استنكر، ومنه: (الإدانة) بلغة أهل القانون.

وجاءت الطامّة الكبرى إعلامياً وسياسيّاً في (شرعنة الاحتلال) وفي (عقلنة الممارسة) ، فقد سمعتُ يوم: ١٢/٨مسؤولاً عراقياً كبيراً جداً يوصف عادة بأنّه فقيه بلا عمامة يتحدث عن الشرعنة والعقلنة، ولا أعرف أن كيف ساغ في عَرفه أن يستعمل هذين الفعلين؟

وأقول لا أعرف لأنّك لو سألت مسؤولنا الموقّر هذا عن مسألة فقهية لقال لك: (يقول الشارع المقدّس: إنّها كذا وكذا) وإذاً لدينا مادّة (شَرَع) ومنها نشتق: (شرْع الاحتلال) فإن خفنا اللبسَ كان أمامنا طريقان هما:

إمّا أن نقول: جعل الاحتلال مشروعاً.

أو أن نقول: تشريع الاحتلال.

وما أقوله عن (شرعنة) أقوله عن (عقلنة). وإلاّ فهل ترانا قصّرنا أن نستمع إلى خصومات الجيران التي تقوم على خلافات الأطفال فيقال فيها: (عقّل ابنك)، وإذاً لماذا لا تكون (العقلنة): (تعقيلا)؟!

وإذاً من أين جاءت (الشرعنة) و (العقلنة)؟

أقول: جاءت من (البلقان) و (لبنان) فإذ انتهى كلاهما بالنون وآلت حالهما إلى ما كانت عليه ألصق سياسيونا وإعلاميونا بكلّ ما هو من مثل حالهما نونا، فقالوا: (الشرعنة) كما لو أن الفعل في العربية هو: (شرعن، يُشرعنُ، شرعنةً).

وإنّني لأخشى أن أسمع ذات يوم - إذا خرج المستشارون الأمريكيون من وزاراتنا لا سمح الله ولن يسمح بإذنه تعالى !! - حملةً باسم: (عرْقنة مناصب المستشارين).

وكارثةٌ لغوية أخرى أرجو ألاّ يكون للاوعي فيها دخلٌ هو قول مسؤول عراقيّ مرموق، عمّا يعانيه النجف الأشرف من عبث السياسة بقداسته، وبأهله، وبمقدراته، وقد سمعتُ قوله ليلة ١٢/ ٨: في برنامج (بالمرصاد): (إنّنا تدخلنا منذ أن لاحت تباشير الحالة).

ولا أعرف حتى الآن أن كيف تكون هنالك أزمة فيها قتلى، وفيها جوع، وفيها عطش، وفيها ارتعابٌ أطفال أبرياء، وفيها قصف مرقد الإمام عليّ (ع)، ويكون لها تباشير؟ فإذا كان للأزمة (تباشير) فبماذا نسمّي علامات النصر في معركة مع إسرائيل؟ وبماذا ندعو علامات وفود المريض الميؤوس من شفائه على ربّه؟!

أترى أنّ صاحبنا أخذ بظاهر القرآن في قوله : (فبشّرهم بعذاب أليم) فلم يفهم المجاز في الآية أم أنّه أخذ بتباشير الصبح؟

وعلى الحالين إنّها (نَذَر)، فأنذر نفسك قبل أن تنذر عشيرتك الأقربين يا ابنَ أمّ، فالسنّةُ المُخصبةُ - كما يقال - يَتبيّن خصبُها في النيروز.

وثبرنا مسؤولونا، وأشباه مثقّفينا بـ طيوف الشعب العراقي (وبـ) أطياف الشعب العراقيّ (وبـ) الشعب العراقي بكلّ أطيافه).

وأقول: ليس لدى الشعب العراقي، ولا سواه من شعوب الأرض طيوفٌ، ولا أطياف، وإنّما لديه طيف استعرناه له من الطيف الشمسي حين يمرّ على موشورٍ زجاجيّ فيتحلل إلى ألوانه.

وهكذا هو الشعب العراقي طيفٌ واحد فيه من الألوان: العربي، والكردي، والتركمانيّ، والآشوري، والصابئي المندائي، والكلداني، وفيه من المذاهب ما نعرف وما لا نعرف، ويجمع هذا الطيف بكلّ ألوانه وطنٌ عظيم واحدٌ - لا موحّد - رائع اسمه العراق.

أمّا عبارة (سوف لن يكون) الكثيرة الدوران على الألسن فلن أتحدّث عنها ، لأنّني عاهدت نفسي أمام نفسي ألاّ أسمعها من متحدّث من دون أن أغلق أذنيّ حتى لو كان قائلها ابنَ لسان الجُمَّرة، أو الجاحظ.

ووفدت اللهجة المصرية إلى الإعلام العربيّ، ووفد نطقُها الذي لا يميّزُ بين الذال والزاي، والثاء والسين، والقاف والهمزة، ووفد معها بعض تفاصح المصريّين فصاروا ينطقون الزاي الأصلية ذالاً - ولك أن تراجع كتب الأستاذ طه حسين، والأستاذ محمد مندور لتوافقني - فصار الإعلام العربي يقول: (النّذر اليسير) وهو يعني: (النّزر اليسير).

وأتذكّر أنّني قرأت كتاباً في علوم الحديث الشريف - ولعل ذلك كان في أوائل السبعينات - لشيخ أزهريّ عنوانه يُشبه أن يكون: (الباعثُ الحسيسُ إلى طلب علوم الحديس :) يعني - كما هو واضح: (الباعثُ الحثيثُ إلى طلب علوم الحديث).

فإن غاب عن ذاكرتي العنوان دقيقاً فلن يغيب عنها أنّه سجّع في عنوانه بين الثاء والسين.

بل إنّ الأستاذ تيمور كتب ذات مرّة إلى العلاّمة الأب أنستاس ماري الكرملي في رسالة منشورة في كتاب (الرسائل المتبادلة بين تيمور والكرملي)، وأرجو أن لم أخطئ في تذكّر العنوان دقيقاً، يسأله فيها إن كان الذكيّ - يعني الثاقب العقل فطنه - هو زكيٌّ أم ذكيّ؟

وأتذكّر أنّني تصفّحت كتاباً في علم الحيوان لأستاذ مصريّ فلفت نظري فيه فصلٌ بعنوان: (القرنُب) فقرأته، وإذ انتهيتُ من قراءته اكتشفتُ أنّه كان يتحدث عن (الأرنب)، ولكنّ التفاصح جعله يظنّ أن الهمزة المصرية الفصيحة منقلبةٌ عن (القاف)، قياساً على (أوي) بمعنى: (قوي).

والمهم في كلّ ما قلتُ أن رضينا بكلّ هذا وفي أذهاننا أنّ اللغةَ يمكن أن تصلح، والتفاصح يمكن أن يُصلّح، ولكن كيف يُصلّح الفعل؟!

ويزيد من المرارة أنّنا لم نرَ في أيامنا هذه لا لغةً سليمةً، ولا فعلاً سديداً، وفي فوضى العراق القائمة وفي بطالة شبّانه لي شاهدان، وجلُّ ما أخشاه أن أنجرّ يوماً ما إلى سرد محنة المعارضين المغتربين الذين لم يعودوا حتى هذه الساعة إلى وطنهم وإلى أعمالهم، لأنّني سأنشر حينذاك الغسيل الوسخ، وسأقول حين أنشره:

رضينا بالحشفِ فلماذا سوءُ الكيْلة؟

وسيكون يومها لكلّ من الساسة العراقيّين الحاكمين كتابٌ في يساره، فقد طفح الكيل.

هل حقق المؤتمر الوطني أهدافه المرجوّة؟

الدكتور عزت صادق أبو التمن

تطلع شعبنا العراقي الى مؤتمر وطني يوطد تقاليد العمل الديمقراطي ويعزز العلاقة بين القوى السياسية والاجتماعية، ويخلق علاقات جديدة مبنية على الاحترام المتبادل، ويؤسس لمؤسسات ديمقراطية شرعية تدافع عن مصالح الوطن العليا، أملاً في أن يتمخض عنه مجلس وطني مؤقت تتمثل فيه مختلف أطياف المجتمع العراقي. والمهمة الاساسية لهذا المجلس تتمثل في دعم ومراقبة نشاط الحكومة المؤقتة وجهودها لتحقيق الأمن والاستقرار، والمباشرة بدفع وتيرة إعادة الأعمار والتهيئة الجادة لاجراء انتخابات عامة، حرة ونزيهة، بتاريخ أقصاه ٣١ كانون الثاني ٢٠٠٥، كي يتمكن الوطن من استعادة عافيته وانهاء الوجود العسكري الأجنبي وترسيخ السيادة الوطنية وتحقيق الاستقلال وبناء نظام ديمقراطي فيدرالي.

انعقد المؤتمر خلال الفترة ١٥- ١٨ آب ٢٠٠٤ وانتخب مجلساً وطنياً مؤقتاً، وشارك فيه أكثر من ١٢٠٠ مندوب، لتستكمل به الأركان الاساسية للحكومة العراقية المؤقتة الى جانب رئاسة الدولة ومجلس الوزراء والسلطة القضائية. وبالرغم من ان المؤتمر انعقد في ظروف شهدت تصاعد اعمال العنف وواجه صعوبات جدّية خلال فترة الاستعداد والتحضير له، فضلاً عن النواقص التي رافقت اختيار المندوبين، فقد كان محطة هامة في العملية السياسية وخطوة ضرورية في انجاز الفترة الانتقالية. كما ان انعقاد المؤتمر بحد ذاته انجاز مهم، ويأتي إستجابة لإستحقاقات والتزامات مثبتة في قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية، مضفياً على العملية السياسية ديناميكية جديدة.

فهل حقق أول مؤتمر وطني شعبي يعقد بعد انهيار الدكتاتورية الاهداف التي تطلع اليها شعبنا العراقي؟

للاجابة على هذا السؤال من المفيد الاشارة الى أبرز ما تميز به المؤتمر:

*المشاركة الواسعة لمثلي مكونات المجتمع العراقي القومية والدينية والمذهبية وتياراته السياسية، التي تعبر عنها أحزاب وتجمعات وطنية وقومية وإسلامية ساهمت لعقود طويلة في مقارعة الدكتاتورية وكافحت ضد سياسات التعصب والتمييز القومي والطائفي، أضافت بعداً وطنياً عاماً على المؤتمر. وقد ساهم ممثلو المحافظات، البالغ عددهم (٥٥٧) مندوباً، بحيوية وديناميكية في جميع مراحل انعقاد المؤتمر الى جانب أكثر من سبعين حزباً مثلهم (١٥٦) مندوباً. وشارك ايضاً (٧٥) مندوباً يمثلون أكبر قبائل وعشائر العراق يغطون الرقعة الجغرافية لكل مناطق البلاد. أما بقية المندوبين، والبالغ عددهم أكثر من (٤٠٠) مندوب، فيمثلون مؤسسات المجتمع المدني ورجال الدين البارزين والشخصيات الأجتماعية والأكاديمية والثقافية والمبدعين الى جانب نسبة عالية من المستقلين. وأضفى الزي الوطني والقومي والمحلي الذي ارتداه الكثير من المندوبين رونقاً وبهجة جسّد بشكل رائع مكونات المجتمع العراقي.

*أثار المؤتمر إهتمام الجماهير على مختلف مشاربها واتجاهاتها، ولعبت الحملة الاعلامية التي نظمها الفريق الأعلامي للهيئة العليا لأعداد المؤتمر الوطني وبمشاركة الأمم المتحدة، دوراً هاماً بالتعريف بأهداف المؤتمر وموضوعاته ونتائجه. حيث ساهم العديد من الصحف في هذه الحملة وخاصة (العراق الديمقراطي)، الصحيفة اليومية التي صدرت بمناسبة انعقاد المؤتمر وكانت توزع (١٠٠) ألف نسخة يومياً، من خلال اجراء مقابلات واسعة ومتنوعة وكتابة مقالات نقلت الكثير من آراء ومقترحات المواطنين الى المؤتمرين. كما لعب النقل المباشر لوقائع المؤتمر من قبل محطة (العراقية) وبعض الفضائيات دوراً هاماً في توسيع التفاعل الجماهيري مع أحداث المؤتمر ونتائجه.

*أصبح المؤتمر فضاءً واسعاً رحباً استوعب جميع الافكار والآراء والمقترحات لتتفاعل فيما بينها، وبديمقراطية وروح شعبية مهدت الطريق لنقاشات حيوية ناضجة لا تخلو احياناً من ارتفاع نبرة الكلام والتحدث بحرارة تعبر عن عمق الايمان بالقضية التي يطرحها المساهم في هذا الملتقى واستعداده للدفاع عنها وسرد الحجج لاقناع الآخرين بها. وقد جرى كل ذلك في جو طبيعي وحرية لم تشهدها الحياة السياسية في العراق منذ وقت بعيد ولم يألفها المواطنون. ومن جهة أخرى، اثبتت القرارات والتوصيات التي اتخذها المؤتمرون استعدادهم لتقبل الرأي الآخر، كما تم التوصل في حالات عديدة الى إجماع في الرأي وخاصة في القضايا الوطنية.

*تفاعل المؤتمرون وبحيوية ملفتة للنظر مع الشارع العراقي وما يدور فيه من أحداث ساخنة ومتغيرة. حيث لم يتم الألتزام بجدول أعمال المؤتمر المُعد سلفاً، وجرى تغييره عدة مرات حسب متطلبات ومجريات الوضع خارج اروقة المؤتمر. وبذلك برهن المؤتمرون على أنهم القلب النابض للمجتمع العراقي. وقد برزت هذه الظاهرة منذ الساعة الأولى لانعقاد المؤتمر وحال أنتهاء مراسيم الأفتتاح، حيث عبّر المؤتمرون عن قلقهم المشروع ومشاعرهم الصادقة تجاه ما يجري في النجف الاشرف من عمليات مسلحة مؤسفة ألقت بظلالها على المؤتمر، بالاضافة الى آثارها السلبية الخطيرة على العملية السياسية في بلادنا التي يمثل المؤتمر الوطني وانعقاده واحداً من أهم محطاتها. ناقش المؤتمرون وبحرارة هذه التطورات وأقروا تشكيل وفد للقاء رئيس الوزراء الدكتور اياد علاوي وتسليمه نداء بأسم المؤتمر يطالبه بإيقاف جميع العمليات العسكرية والشروع بإجراء حوار سياسي لحل الأزمة. وعلى أثر أجتماع الوفد مع رئيس الوزراء أعلنت الحكومة العراقية موافقتها على إيقاف العمليات العسكرية في النجف الأشرف وأعطاء فرصة جديدة للحوار. وأستكمالاً لهذه الخطوة طرح المؤتمرون في اليوم الثاني مبادرة أخرى، وذلك بأرسال وفد من المؤتمر الى النجف الأشرف للقاء السيد مقتدى الصدر ومطالبته بترك الحضرة العلوية وحل (جيش المهدي) وتحويله الى حركة سياسية.

*أظهر المؤتمر حقيقة مفادها أنه مهما تباينت برامج القوى الوطنية والقومية والاسلامية الحريصة على مستقبل العراق الديمقراطي، فان هناك امكانية فعلية لصياغة برنامج وطني ديمقراطي يلف حوله مختلف اطياف مكونات الشعب العراقي من خلال حوارات ونقاشات مسؤولة تقرّب وجهات النظر وتساعد على التوصل الى رؤى مشتركة في القضايا الاساسية التي تخص وطننا. وقد أنعكس ذلك في المبادرات الوطنية التي طرحت أثناء المؤتمر بهدف حقن الدماء وضمان الأمن والأستقرار، وكذلك إقرار أوراق العمل الاربعة التي شملت المجالات السياسية والأمنية واعادة الاعمار وحقوق الانسان. وبهذا يعتبر المؤتمر منبراً وفضاءً اسهم في بلورة المشروع الوطني الديمقراطي بمفرداته الأساسية التي تتضمن استعادة السيادة الكاملة، وانهاء التواجد العسكري الأجنبي، واستتباب الأمن والاستقرار، واطلاق الاعمار بشكله الواسع، واعادة بناء الاقتصاد الوطني، ومواصلة العملية الديمقراطية وبناء مؤسساتها. واكدت اعمال المؤتمر ونتائجه ان مبدأ التوافق في الظرف الحالي هو مبدأ هام لتجميع طاقات أوسع مكونات الشعب العراقي وقواه الفاعلة لوضع هذا البرنامج موضع التنفيذ.

*كانت للمرأة العراقية صولات متميزة في هذا المحفل الوطني، حيث ساهمت العشرات منهن في النقاشات داخل المؤتمر وفي اللجان الاربعة المنبثقة عنه. كما ضم المجلس الوطني المُنتخب خمساً وعشرين امرأة كانت أصواتهن ومشاعرهن، الممزوجة بمعاناتهن إبان العهد الدكتاتوري، تثير حماس ورغبة الجميع بالعمل من أجل أن لا تعود تلك الأيام السوداء على الأمهات والأخوات والبنات، فقد كانت مأساتهن مضاعفة. ومن جهة أخرى، كانت المرأة سبّاقة في طرح المبادرات والمقترحات التي تثبت فيها قدرتها الفعلية كي تلعب دوراً سياسياً وفيادياً في بناء مجتمع المستقبل. وتقدمن بمقترحات من اجل وقف نزيف الدم جراء العمليات العسكرية، وتبني قضايا الشهداء والسجناء والمفصولين السياسيين، وتحسين مرافق التربية والتعليم والصحة والاهتمام الخاص بالطفولة وغيرها. إن مجريات المؤتمر ونشاط المرأة فيه أثبت وبما لايدع مجالاً للشك بأن المرأة العراقية قادرة على المساهمة جنباً الى جنب مع اخيها الرجل في جميع مفاصل المجتمع الرسمية والشعبية وعلى جميع المستويات.

*بدد المؤتمر أقاويل البعض وتشكيك وتصورات البعض الآخر ممن كان يعتقد بأنه سوف لن يشكل حدثاً ذا شأن. ولكن في واقع الحال تحول المؤتمر الى حدث مهم في حياة الشعب العراقي، واثبت ان أي قضية تخص الشعب والوطن، مهما كانت معقدة وملتهبة، يمكن ان تطرح على بساط الحوار والنقاش، كأحداث النجف الأشرف مثلاً. ونتيجة للحوار السياسي المسؤول أطلق المؤتمرون مبادرتين سياسيتين هامتين عبّر عنهما النداءان الموجهان الى الحكومة العراقية والسيد مقتدى الصدر واللذان حصلا على إجماع المؤتمرين. فما هي الحكمة وراء الموقف الذي تبنته بعض القوى العراقية بمقاطعة المؤتمر والحكم سلفاً بصورة سلبية على مجرياته وما يمكن ان يتمخض عنه؟ لقد قدّم المؤتمر الدليل على انه يستطيع الخوض في جميع القضايا، حتى الشائكة منها